رؤى بطعم الأحلام

أثار مكان انعقاد مؤتمر "رؤى المدينة المحلية في الخطاب الحديث" على جبل المشارف في الجامعة العبرية شجني العميق فرأيته يستفز ذاكرتي. وجدتني استحضر ما سبقه من أشجان فتأكدت أنه تسبب في نبشها من جديد. ففي طريقي الشاق من قلقيلية للمشاركة فيه بمحاضرة عنوانها "هل حيفا مدينة التكوين الجديد؟", ألفتني أتوزع على ثلاثة هيئات زمنية وأخرى مكانية. تخيلتني أحمد الكرمي وهو يرسمني على صفحات روايتي "كبابير حيفا" الصادرة في عام 2013م, ونبيل القلقيلي وهو يحكي قصتي في الجامعة العبرية في عين كارم مختبئاً بين سطور روايتي البكر "غزل الذاكرة" الصادرة في عام 2000م, ثم أنا الكهل الأشيب الذي يغذ الخطى صوب مفترق طريقين يربطان الماضي بالحاضر, والذاكرة بالخيال. تساءلت: هل أراني أقتفي أثر الكرمي في صعوده الكرملي أم القلقيلي في مسعاه المقدسي أم الكهل في تسلقه قمة جبل ينتظر خطابي الحيفاوي؟

كان لزاماً عليّ أن أختار بين معراجي أو مسعاي أو تسلقي. وقد فضلتُ خطر تسلقي على مستحيلين. ثم لا أخفي أنني كنت منهكاً ومنهمكاً في استجماع صوري الثلاث الماضية التي بعثرها الزمن؛ صورتي في هيئة أحمد الكرمي الباحث عن ذاته المهدية العتيدة في حي الكبابير, وتماثلي مع نبيل القلقيلي الطالب في الجامعة العبرية, الباحث عن أيام فؤاده الجريح هناك, ثم أخيراً أنا اليوم الذي جار عليه الزمن فرمّله شر "ترميلة".

كنتُ تعباً وأنا أحاول مقاربة رؤاي في الخطاب مع أحلامي على أرض الواقع الأصم. والعجيب أنني تذوقت طعم خطابي فالفته بطعم أحلامي في معراجي ومسعاي وتسلقي. أنا الذي يعرف طعم الأحلام الراحلة ورائحة ألوانها المتناقضة؛ أعرف, مثلاً, كيف تحول وجه "تمام" الأبيض إلى بدر في ليل تمامه يوم رحيلها عني. وأنا الذي يعرف متى ينقلب الحلم إلى كابوس يغتال مدينة أليفة أمام ناظري فلا أستطيع فعل شئ من أجلها. وعلى أثرها عجزت عن ذرف دمعة واحدة على جثمان مدينة أخرى تهوي مخضبة بالدم والحناء عند "باب العامود". فالموت الذي أحزنني وأبكاني في قلقيلية قبل ثلاثة شهور خذلني دمعه الجسور في القدس المحتلة وأنا أستحضر هيئاتي الثلاث أثناء سفري إلى مؤتمر "هار تسوبيم".

أثناء ذهابي كنت أسابق عربة زمني الخذول للحاق بركب "رؤى المدينة المحلية" على قمة جبل يشرف على المسجد الأقصى. كنت لا أزال أُعاني من طول الطريق المتقطع إلى المؤتمر:" هل أجد فرقاً أُحدّث به نفسي بين رؤاي في الخطاب الأدبي وأحلامي الراحلة في الحياة؟ هل كنتُ أنا الذي رسمته في "غزل الذاكرة" أم أنا الذي أحياه اليوم؟ وما الفرق بين طعم رؤاي في

"كبابير حيفا" ومذاق حلمي في "غزل الذاكرة, وصدى خطابي الذي يسوقني مخفوراً برؤاي إلى "هار تسوبيم"؟

سألتُ عني فلم أجدني في ثلاثة أماكن؛ كأنني تقيأت تاريخي ومدني دون أن أدري. سألتُ المقعد الخشبي الذي كان يجمعني بعايدة المقدسية في بهو بناية "لاوترمان" في الجامعة العبرية في عين كارم فلم يُجبني. أخرسه الزمن الخذول بعدما أعلن للريح العاصفة عن فرارها إلى قريتها غرباً. وسألته عني فقال لي صمته, دون أن يُجيبني صوته, إن نبيل القلقيلي هرب شمالاً ولم يعد حتى الساعة. وحين أطبقت بالسؤال على فم مغارة سليمان أجابتني شفتاها "ودمع العين يسبقها":" مَن يركب الجبل لا يخشى من القتل".

ثم سألتُ عني أحمد الكرمي حين كان يبحث عن ذاته في حي الكبابير فقال بلغة صوفية قديمة:" هل أنت أنا؟ مِن أين أتيت, يا نبيل؟ ألا تعرف أنني لم أعد أراك؟ ألم تُدرك بعد أنني لست أنت؟" خجلتُ من نفسي وأنا أحاول الاعتذار من رؤاي عن معراجي ومسعاي وصعودي إبان تيهي في جبل الكرمل وعين كارم وباب العامود. عاتبني صوت بلكنة مقدسية نشأ في حيفا:" ها قد عدتَ إلى القدس, لماذا تمشي كطير حجل كسير الجناح؟ هل أعيتك رائحة حلمك القديم؟ لو أستطيع أن أعرج بدلاً منك إلى السماء لفعلت".

أما شجني الذي كان دائماً في المقام الأول فكان مقدسياً؛ أحسسته أعمق وأعتق وأشد على نفسي من شجني الكرملي الذي حدثتكم عنه للتو. كان موقفي من شبيهي نبيل القلقيلي في روايتي البكر "غزل الذاكرة"مختلفاً عن موقفي من أحمد الكرمي, رغم تبدل حظوظي إلى الأسوأ. تخيلتني أرى نبيل القلقيلي يجلس بجانب عايدة المقدسية على مقعد خشبي قديم أمام مغارة سليمان كما تعودنا الجلوس سوية. توقفت أمام طيفيهما وبادرته بالسؤال: هل أنت نبيل القلقيلي الذي كنته؟ أجاب بنبرة تهكمية أزعجتني:" ومَن أنت حتى أكونك؟" انسحبتُ من ذاكرتي وتركتها دوني هناك. لم أكن أتوقع أن ينكرني شبابي, ولم أتصور أن عايدة لم تعد تعرفني. أما أنا الكهل فتخيلتني سائحاً ملوناً بألوان الزمن, يخرج من الكهف بهيئة غابرة, ويترك شبابي خلفه ويمضي غير عابئ بي. غادرتني أناي إلى "هار تسوبيم" وهي لا تدري كم من السنين باعدت الأيام بيننا.

نجوت من دوامة تيهي عندما تجاوزت الحاجز الأمني الإسرائيلي على عتبات الجامعة. دخلت باحتها عارياً من ضياعي فلم يفاجئني مستوى الأداء الأكاديمي الراقي الذي تميز به معظم المحاضرين في مؤتمر "هار تسوبيم". كنت أعلم علم اليقين أن الجامعات الإسرائيلية, وبخاصة الجامعة العبرية, تتمتع بمستوى رفيع في كافة العلوم الإنسانية والطبيعية والمهنية. أكدت لي المحاضرة الدكتورة "أورا لفين" هذه القناعة التي لا يساورها شك. وأراني استذكر الآن أن

تحليلها لرواية "بريدا" تميز بالحنكة النقدية والاحترافية المهنية. لقد أظهرت مقدرة فائقة على تفكيك مكونات النص الروائي؛ شخصيات وأمكنة وأزمنة وأحداث كونية خارجية وأخرى داخلية إنسانية. أقول هذا إنصافاً لرؤيتها الأدبية العالمة ببواطن رؤى النص الروائي المذكور, كما أظنها تتوفر على رؤية ثاقبة في الخطاب الواقعي الملموس. وبالرغم من عدم مصادقتي على ما ستذهب إليه في خلاصتها النهائية لثيمة النص؛ من أن المكان الخليلي, مثله مثل المكان المقدسي, ذا هوية يهودية, إلا أنني لا استطيع أن أنكر عليها مقدرتها الذهنية العالية, وتفوقها في تحليل النص فكرياً وفنياً, علماً أن بعض التقنيات الزمنية المستخدمة في الرواية– مثل شروق الشمس والساعة الخربة– تم استخدامها من قبل كثير من الروائيين الذين عبّروا عن العلاقة الوطيدة بين تموضع المكان وتقلب الزمان وأثرهما في تطور الشخصية الدرامية.

إلا أنني أصادقها على تركيزها على الفارق النوعي بين المكان العربي المتخلف ونظيره اليهودي المتقدم؛ إنها الحقيقة التي لا مراء فيها. إذ تم رسم الأول مقترناً بالنفايات والروائح الكريهة والزواحف الضارة, والقمم الصخرية الحادة والينابيع الجافة والأراضي المتصحرة. على أنني ألفت نظرها أن نهوض المدينة– في هذا الخطاب الروائي كما في غيره من النصوص الروائية– مع شروق الشمس له تأويل زمني ذو بعدين متناقضين لم تتحدث عن أحدهما؛ فقد يكون نهوض المدينة الدرامية مؤقتاً, أي تموت مع غروب شمس ذلك النهار أو أبدياً يدوم دوام توالي الليل والنهار على مر العصور. وأظنها تقصد المعنى الثاني الأبدي تأكيداً لمقولتها اليهودية أن الخليل مدينة يهودية منذ نشأة الخليقة ولن تزول يهوديتها بنهاية نهارات الإنسان الزمنية.

ثم ما كان لمحاضرة الدكتور سمير الحاج إلا أن تشرح صدري. كانت ممتعة ودافئة وذات نغم شاعري سيّاب وحس نقدي عميق. رأيته بعين خيالي يحلق عالياً في الأفق الشعري الوطني الرحب. لقد استفزتني صورة "يافا في الشعر العربي المعاصر", وأثارت مكنون مشاعري. وجدته يفلح في أضاءتها كثيمة مكانية تستحضر مهداً لطفولة عربية جميلة. وفي رؤية الميزان الميتا–شعري رأيت يافا قصيدة تتموضع في مرآة ذاتها اللغوية اسماً جميلاً, وعروساً في ليلة عرسها. ألم تكن مدينة أنثى ترتدي لبوساً سحرياً في ليلة زفافها الأبدي من البحر؟ تَرَملت بعد عام 1948م وباتت منكفئة على وجهها كقبر يضم رفات أبنائها ورائحتهم العتيقة.

لم تمت يافا في عالم المخيال الأدبي, بل تكاثرت صورتها كنبات الفطر في قصائد شعرائها اليتامى أمثال محمود درويش الذي صورها قبلة للحج والتقديس," أحج إليك يافا". ورسمها شعراء آخرون أمثال عبد الوهاب البياتي بصورتين متباينتين فناً ومتآلفتين فكراً: الأولى

مُشيّئة, كامرأة ميتة يعلو وجهها صفار الليمون, مثل تمام لحظة رحيلها. ثم أخرى مؤنسنة, كحبة ليمون أليافها عظاماً بشرية نخرة حين قال:" يا مَن رأى يافا... يافا عظام ليمون". وإذا كانت يافا مكاناً واقعياً أصابه العقم فأصبحت عجوزاً شمطاء, تصك وجهها على ما أصابها من خراب, فصورتها في الخطاب الأدبي ثرية, ولودة, ومباركة المتن والسند.

وثالث قولي إن أجمل طرفة قيلت في محاضرة الدكتور عامر دهامشة, حول كتاب "طرائف من قرانا" لكاتبه نايف سليم, أنه حدثنا بغير لغته الأم. ولا أدري ما الحكمة من وراء ذلك. لقد أثار استخدامه اللغة العبرية بدلاً من العربية استغرابي الشديد بحيث اعتقدت للوهلة الأولى أن تبديلاً ما في أدوار أو أسماء المحاضرين العرب واليهود قد حدث بشكل طارئ. كما أن موضوع تضاد المعنى بين الاسم والمسمى لم يشد انتباهي كثيراً فقد قيل قديماً على لسان المصلح الاجتماعي, الفيلسوف كنفوشيوس:" لو قُدّر لي استلام الإمارة في بلدي لغيرت أسماء المُسميات أولاً؛ إذ كيف يطلقون اسماً سعيداً على إنسان شقي؟"

وأرى أن مسألة تضاد المعنى بين الاسم والمُسمى يقارب مسألة صياغة الأسماء وارتباطها الجدلي بمواقف الإنسان من الإنسان في غير مكان وزمان. وتأسيساً على ما ذكرت, تكون محاولتي تبيان العلاقة التي تربط أسماء المشاركين العرب بمسمياتهم من باب الدعابة ليس إلا. وعليه أقول, لا يوجد اسم أو لقب يشذ عن قاعدة العلاقة الاجتماعية أو الدينية التي تتشكل عبر صيرورة الإنسان في مجتمعه ومكانه وزمانه. حتى الأسماء الممنوعة من الصرف أراها تتعالق لغوياً مع هذه الأقانيم الثلاثة التي تُعرّف الإنسان لغوياً وتؤرخ له مكاناً وزماناً. وكان من المؤكد أن كل شعوب الأرض صاغت أسماء وألقاباً لأبنائها تتصل بشكل أو بآخر بالكون أو الخالق أو مخلوقاته من بشر وحجر وطير وشجر, إذ أن الإنسان هو مَن يُصيغ اسمه واسم أخيه ويصف طبيعته البشرية والطبيعية.

كانت أسماء المحاضرين العرب تداعبني بكل ارتياح وأريحية؛ إيمان يونس وعامر دهامشة وسمير الحاج ومحمد حمد وآثار الحاج يحيى ولانا وهبي وجوني منصور ويوسف العيلة. وأرى أن لكل منهم اسماً يطابق أو يعاكس قيماً إنسانية أو تواريخ سامية أو أمكنة مقدسة تؤكد ارتباطه بذاته أو تنفي حضور خصمه وتحاول النيل منه. فحروف أسمائهم اللينة تقول لي إن اسم إيمان مشتق من الإيمان بالله, وعامر من البيت المعمور, وسمير من مُسامرة الحبيب في جوف الليل, ومحمد من الولاء لله صاحب الحمد, وآثار من الأثر التاريخي أو المكاني الذي يشهد على فعل الإنسان, ووهبي من هبة الله أو هبات الدول المانحة. أما اسم عزيزنا جوني منصور فحكايته مختلفة بعض الشيء. فهل يشي لقب منصور أنه كان منصوراً في ثباته على دينه في وجه طوفان الأسلمة الذي استمر ثلاثة عشر قرناً أم مهزوماً أمام سطوة الأجلزة

والعبرنة؟ أترك له الإجابة على أسئلتي. ثم يأتي لقبي الأسري من "عيلة" التي تعني الفقر, إذ كان جدي ميسور الحال ومتهماً بالبخل. وقد ورّثني عبئاً لغوياً يمثل انتصار اللقب الفقير على الاسم الغنى.

وأتفق مع الدكتور دهامشة أن اللقب ينجم عن العلاقة الجدلية بين الاسم والصفة ثم تصبح الغلبة للقب على الاسم في معظم الأحيان. وبات اللقب اسماً يحمل في طياته معنيين متضادين؛ أولهما إيجابي يقوم على المدح والثناء, وثانيهما سلبي يقوم على التحقير والقدح تبعاً لنوعية العلاقة الاجتماعية بين المُلَقِب والمُلَقَب. وهنا استحضر اللقب دهامشة الذي أصبح اسماً لعائلة كريمة: هل يتقاطع معناه مع "دهمش" أي الصورة الصغرى لمعاني "دعمس" و "دغمس" و"دحمس" أم مع الصورة العُظمى لمعنى "دهمج"؟

وأختلف أيما اختلاف مع البروفسور دورون بار حول مدلول عنوان محاضرته "القداسة الإسلامية تحت السيطرة الإسرائيلية", فقد صدمني معناه وصياغته الخشنة؛ فما كان لأستاذ كبير أن يعتقد للحظة أن المكان المُعين قيمة روحية مطلقة! فالقداسة اسم معنوي مجرد يعبر عن قيمة روحية تحمل في طياتها روحاً وجوهر لا يمكن لهما أن يقعا تحت سيطرة أية قوة بشرية. كنت أتمنى عليه أن يستخدم عبارة "الأماكن المقدسة" بدلاً من "القداسة" حتى يستقيم المعنى الدلالي لعنوان محاضرته. أي صياغة لغوية أدق دلالياً من الأخرى لعنوان محاضرته: "القداسة الإسلامية..." أم "الأماكن المقدسة... "؟ أقول هذا حتى لو افترضت جدلاً أنه يشير من طرف خفي إلى أن يد السيطرة الإسرائيلية الطولى تمتد خارج حدود إسرائيل لتشمل الأماكن الإسلامية في كلٍ من "تركيا الأتاتوركية" وبلاد "الحجاز السعودية"!

إن القداسة جوهر روحي لا يتجسد في مقامات مهما بلغ عددها أو مقامها, سواء كانت خمسماية أم خمسة ملايين. ويعلم, ابن العم, علم اليقين أن مفردة القداسة– كمضمون دلالي روحي– لا يمكن لها أن تتجسد مادياً في مكان أو أمكنة يمكن السيطرة عليها, فهي الجوهر الأمثل الذي يُعبّر عن عقيدة المؤمن بالملكوت الأعلى. وأختم بالقول إنها بجوهرها الروحي تسمو في عليائها على "تحتية" نيران السيطرة الإسرائيلية الأرضية.

وأصل إلى نقطة تصلني بأحمد الكرمي وتجعلني على تماس مباشر مع طيف نبيل القلقيلي اللذين كنتهما في يوم من الأيام في عالم الرؤى الأدبية. أجدني نادماً أنني رسمت الكرمي بطلاً لأفكاري في بحثه عن وسيلة روحية للتواصل مع الأمام المهدي كي يمنحه حلاً لأزمته الوجودية التي خلقها اليهودي الذي سلبه وطنه, وطرده من مدينته, وصادر مستقبله. جعلته يحمل بيرقي بعد أن فُت في عضده, وخاب رجاؤه في الشيخ الهلالي, الذي خذله. وفي يأسه من فوزي القاوقجي, الذي تآمر عليه وباع مدينته, وتركه لقمة سائغة لعدويه سيراموس

والقائد بن توف المدعومين من قبل الأنجلو-أمريكي بوسائل القوة العسكرية الفائقة. لقد حمّلته عبأ وجودياً ضاغطاً جعله يُضيّع بوصلة نجاته. كان أجدر بي أن أرسمه صعلوكاً لا يقدر على خوض تجربة البحث عن المهدي؛ كان سيئاً كالآخرين الذين قادوه إلى الضياع.

ولعلي أُعاتبه:" كانت مهمتك في روايتي "كبابير حيفا" إضاءة الصراع القادم بين مدينة الإمام المهدي المنتظر القائمة على العدل والسلام وبين مدينة بلفور العلماني الأنجلو-سكسوني ولم تفعلها كما يجب. ثم أخفقت في التأكيد أن نهاية الصراع العربي الإسرائيلي مؤجلة إلى أمد غير منظور, رغم أنني جعلتك ترفع سقف الصراع من المستوى البشري-البشري إلى المستوى الإلهي- البشري, ليكونَ القولُ الفصل فيه لله وحده, وليس للبشر. وربما يكون هذا التأجيل لمصلحتك يا مَن خيّبت أملي فيك. كان أداؤك ضعيفاً وغير مقنع, إذ بدوت غير مستكمل للشرط الحضاري الضروري لنيل حقك وحريتك. كان لا بد لي من الإشارة أنه إذا ما استمر وضعك العربي والإسلامي على حاله المُزري فإن مهمة الإمام المهدي ستكون قاسية عليك وعلى جميع الفرقاء المتحاربين".

والآن أُسائل نفسي: لماذا رسمت شخصية روائية رئيسة تعبر عن أزمة العربي الفلسطيني تحت نير الاحتلال الإسرائيلي بهذا الضعف؟ وحين أضيق ذرعاً باستخذائها أهمس في خاطري: وما الغضاضة في ذلك؟ ألسنا أضعف منه في مواقفنا وأهدافنا وخططنا؟ وإذ أدينه لأنه قايض نصفه العربي بنصف عدوه الحميم يهوشوع المغربي فإنني أعذره أيضاً؛ ألم يقايض ياسر عرفات كل فلسطين بالمال؟ لماذا لا أرسمه كذلك؟ أما العطب الذي أصاب علاقتي الفنيّة به أنه لم يكن مدركاً حقيقة أن حل أزمته ليس بيده أو يد صديقه اليهودي الشرقي, بل بيد السيد الأنجلو-سكسوني الذي أفقده وطناً وأفقد صديقه جذوراً وهوية. جعلته يتحمل تداعيات رؤيتي العميقة التي لا تتناسب مع قدرات شخصية غير مكتملة النصاب الإيماني والوطني. أراها اليوم تجربة غيرية قاصرة عن تقديم أي مقترح جدي للخروج من ربقة هزيمته.

وأختم بالقول إن الأداء الرديف للمحاضرين والقائمين على المؤتمر لم يكن بمستوى الأداء الأكاديمي الرفيع المستوى الذي وصفته في بداية تعقيبي هذا. أما الذي فاجئني فكان انعدام التواصل بين المحاضرين أنفسهم. تصورتهم جميعاً غرباء عن بعضهم الآخر, مثل نبيل القلقيلي الذي أنكرني عند "باب العامود". لم أتصور أحداً منهم يراني أُشبه أحمد الكرمي الذي يعرفه بعضهم وهو يرسمني في "كبابير حيفا". كنتُ بينهم صدى فقد صوته, وإطاراً سرق الزمن ملامح صورته. شعرت أن كل الوجوه, عرباً ويهوداً, تلغي أزمنتي الثلاثة وأمكنتي الثلاثة التي عشتها ولا أزال أعايش تداعياتها.

أظنهم رعايا مزاج متناقض يتقلى على لظى نارين مستعرتين. كم كان قاسياً على نفسي أن أرسمني بحروف ليّنة في زمن غربتي وكهولتي الخشنة! وسأظل أراني أُبحر القهقرى إلى شاطئ حيفا الكرملية, وأحلق عالياً في سماء عايدة المقدسية حتى لو اتهمني البعض بالسباحة ضد التيار أو الطيران في مسالك جوية ذات مطبات هوائية خطرة.

لن أجدني أكثر تعباً أثناء تحليقي في سماء القدس وعومي على عوم أحمد الكرمي في بحر حيفا من تعبي أثناء مقاربتي بين وقائع مؤتمر "هار تسوبيم" البارد وبين وقائع مؤتمرين ثقافيين سابقين كان لي شرف المشاركة فيهما. انعقد الأول برعاية وزارة الثقافة النرويجية في مدينة ستافنجر النرويجية عام 1998م, وكان بعنوان" الدين وحرية التعبير". أذكر أن انعقاد جلساته كان في عدة أمكنة وعلى مدار عشرة أيام. كما انعقد الثاني برعاية الجامعة الأمريكية في مدينة رام الله عام 2006م, وكان بعنوان "الفكر القومي العربي والإسلامي في مواجهة تحديات العصر". لقد نجح المؤتمران في ترسيخ قيم إنسانية وحضارية ومعنوية بين المشاركين لا تزال تبهجني حتى اليوم. وقد وجدت فيهما حُسن الاستقبال ورقي الضيافة وعمق الألفة التي جمعت بين المضيفين القائمين على المؤتمر وبين الضيوف المحاضرين, المشاركين في جلساته التي امتدت على مدار يومين كاملين.

أعجب من النخب المثقفة الذين أسمعهم يدعون إلى الحوار بين الأطراف المتصارعة, ثم أراهم غير قادرين على التواصل الإنساني فيما بينهم! كيف لهم إذاً أن يطلبوا من العامة القيام بما عزفوا هم عن القيام به؟ وحسبي القول في هذا الصدد إنني وجدت الأطراف كافة رعايا مزاج إسرائيلي ضاغط, يتسم بعدم الاهتمام بوجود الآخر أو ذات الآخر؛ مزاجاً ورثوه كما ورثوا أسماءهم وهوياتهم. فلا الذي يعتبر نفسه منتصراً عسكرياً قادر على تقيؤ مخاوفه المزمنة من المهزوم, ولا المهزوم في ساحات الوغى قادر على التخلص من عبء هزيمته المجانية, ولا الذي يترنح بين المزاجين يستطيع تبني أي من الموقفين الضدين. هكذا أجدنا في المؤتمر, وفي طول البلاد وعرضها؛ نخشى الآخر وهو يخشانا حتى في ظل سطوته العسكرية. لقد إنفصمنا عن ذواتنا؛ في حمأة توترنا لم يعد الواحد منا يُفرّق بين عدوه الحميم وأخيه المخالف له. كيف لنا أن نشك في نوايا الآخر دائماً ثم نتمسك بشكنا دفاعاً عن بعض أوهامنا وهواجسنا العابرة؟

كنت ولا أزال أُؤمن أن المؤتمرات الثقافية عموماً تسعى لتكريس حالة من التواصل تشكل أنموذجاً لعلاقات ممكنة بين القاعدة الشعبية العريضة لدى الطرفين. لم يتحاور المحاضرون مع بعضهم الآخر؛ ولم يتعارفوا أو يتناقشوا. وربما يكون تعقيب كل واحد منا على وقائع المؤتمر هو الفرصة اليتيمة التي قد نتواصل بها مع بعضنا الآخر عن بعد يجرد التواصل من

روحه وحرارته. غادر بعضهم المؤتمر قبل انتهاء جلساته, وأحجم مَن بقي حتى الجلسة الأخيرة عن محاورة مَن بقوا. هكذا كنا؛ صورة نقيض يجالس نقيضه عن بعد, وكأن سبرنا مثل سبر الدببة السيبيرية؛ تتعايش متباعدة في جو قارص البرودة ووحشة عميقة الغور.

تفرق المشاركون والحضور في نهاية الأمر أشتاتاً, وكأن على رؤوسهم الطير. كان مساؤنا مراوغاً؛ فلا سؤال ولا جواب, ولا مُخرجات ولا توصيات اتفق أو يتفق عليها المحاضرون كي يختموا بها يومهم الدراسي أو مؤتمرهم الفكري. هل ذهبنا حقاً إلى "هار تسوبيم"؟ ولماذا اجتمعنا هناك؟ وكيف لنا ألا نتناقش حول أرائنا؟ وقبيل عودتنا كان عليّ أن أسمع السيد إغبارية يبذل جهداً لتأمين خروجي من منطقة يهودية مجهولة المخارج بالنسبة لي. ولولا تدخله المشكور لضعتُ فعلياً في حال إيابي المنفرد إلى قلقيلية كما ضعت وجدانياً إبان ذهابي الشجي إلى المؤتمر؛ وكيف تشبه تلك الأشجان شجني اليوم؟

يوسف العيلة– قلقيلية
yousufalaili@hotmail.com
www.ayda-pal.com
20/6/2016